سلسلة خبايا الزوايا (٣٢)

مقامة العيد

لأبي محمد عبد الله الأزدي

المتوفى سنة ٧٥٠ هـ

تحقيق

أحمد مختار العبادي

صحيفة المعهد المصري
للدراسات الإسلامية في مدريد
المجلد الثاني
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م
العدد ١ - ٢

وزارة المعارف العمومية ، مصر — الإدارة العامة للثقافة العامة

صحيفة المعهد المصرى

للدراسات الإسلامية فى مدريد

يصدرها المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد
رئيس التحرير : حسين مؤنس ، مدير المعهد المصرى فى مدريد
تصدر عددين فى العام
الاشتراك السنوى : ٨٠ بسيته اسبانية فى العام (٤٠ بسيته عن كل عدد)
أو ٨٠ قرشاً مصرياً أو دولاران ونصف
العنوان : المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، ماتياس مونتيرو رقم ١٤ مدريد ، اسبانيا

المجلد الثانى ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م العدد ١ — ٢

طبعت بمطبعة المعهد المصرى فى مدريد
١٩٥٤

مقـامة العِيد

لأبى محمد عبـــد الله الأَزْدِى

(توفى ٧٥٠ هـ / ١٣٥٠ م)

صورة من صور الحياة الشعبية فى غرناطة

المقامة فن معروف فى الأدب العربي . نشأت بالمشرق فى شكلها الفنى الخاص على يد بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨/١٠٠٧م) ثم أبي محمد القاسم الحريرى البصرى (ت ٥١٦/١١٢٢) ومنذ ذلك الوقت فتح باب فن المقامات واسعاً ، فولجه كثيرون من أدباء العالم الإسـلامى حتى عصرنا الحديث . وكان طبيعيـاً أن ينتقل هذا الفن إلى اسبانيا منذ ظهوره بالمشرق ، فكثير من الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق فى ذلك الوقت طلباً للعلم، درسوا هذا اللون من الأدب ، ثم عـادوا إلى بلادهم محدثين به ناشرين إياه بين مواطنيهم . فمقامات البـديع الهمذاني ورسائله انتشرت بوجه خـاص أيام ملوك الطوائف بالأندلس حيث قام بعض أدباء ذلك العصر بمعارضتها وتقليدها ، فيروى ابن بسام أنه فى أيام المعتضد بن عباد باشبيلية (٤٣٤ـ٤٦١ = ١٠٤٢ـ١٠٦٨م) وضع الأديب أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني ، مقامات «عارض بها البديع فى بابه وصب فيها على قالبه[1]» . ويروى كذلك أن الشاعر أبـا المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى عام (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) عارض رسالة لبديع الزمان

---

(١) أورد ابن بسام على سبيل المثال مقامتين للاديب المذكور فى كتابه الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٥٤ — ١٦٧ وقد نشر احداها أيضاً حسن حسنى عبد الوهاب وهى ضمن رسائل البلغاء التى جمعها محمد كرد علىَ (طبع مصر ١٩١٣) كذلك نشرها الخانجى (مصر ١٩٢٦)

فى وصف غلام[١]. وفى موضع آخر أورد ابن بسام أجزاءً من مقامتين إحداهما لأبي حفص عمر الشَّهيد[٢]، والأخرى لأبي محمد بن مـالك القرطبي[٣]، وكلا الأديبين عاشا فى عهد المعتصم ابن صمادح بالمريه (٤٤٣ ـ ٤٨٤ هـ = ١٠٥١ ـ ١٠٩١ م).

وفى أوائل عهد المرابطين بالأندلس، ظهرت مقامـات الحريرى بالمشرق، ثم لم تلبث أن انتشرت بالمغرب إنتشاراً كبيراً، وعنى بهـا علماء الأندلس فى حياة مؤلفها نفسه. فيروى ابن الأبار أن كثيراً من الأندلسين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد، ثم عادوا إلى بلادهم حيث حدثوا بهـا عنه، ونذكر من هؤلاء الحسن بن على البطليوسى[٤] (ت ٥٦٦ هـ/١١٦٩ م)، وأبا الحجاج يوسف القضاعى الأندى[٥] (نسبة إلى أُونده Onda من كور بلنسيه[٦]) (ت ٥٤٢/١١٤٧ م).

وبعد موت الحريرى استمرت مقاماته تدرس على يد تلاميذه الذين أجازهم بالرواية عنه ونخص بالذكر منهم ابنه أبا محمد[٧]، والأدباء أبا الطاهر الخشوعى[٨] بدمشق، وأبا القاسم عيسى بن جهور بقرطبـة[٩]، وأبا الحجاج القضاعى، السابق الذكر، بألمريه[١٠] وغيرهم.

---

(١) راجع نص الرسالة فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١١٧

(٢) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ١٨٤ — ١٩٥

(٣) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٥٧

(٤) ابن الأبار: كتاب التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ١٦ (رقم ٣٥)

(٥) ابن الأبار: كتاب التكملة لكتاب الصلة ج ٢ ص ٧٣٢ (رقم ٢٠٧٦)، الضبى: بغية الملتمس رقم ١٤٤٦ ص ٤٧٧

(٦) Lévi-Provençal: La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'apres le *Kitab Ar-Rawd al Mi'tar fi Habar al Aktar* p. 31, 39 y nota 5

(٧) ابن الأبار: تـكملة ص ٦٣٧ (رقم ١٧٧٩)

(٨) ابن الأبار: تـكملة ص ٥٠١ (رقم ١٤٢٣)

(٩،١٠) ابن الأبار: تـكملة ص ٢١٣ — ٢١٤ (رقم ٧٢٧)، ابن خير: فهرسة ج ١ ص ٣٨٧، ٤٥١

فعلى هؤلاء ومن روى عنهم درس الأندلسيون، أيام المرابطين والموحدين، مقامات الحريرى، وحسبنا أن نحيـــل القارىء على بعض المراجع كالمكتبة الأندلسية، ليقف على أسماء بعض هؤلاء الطلبة الاسبان الذين يضيق المقام الآن عن ذكرهم لكثرة عددهم[١].

على أن المهم هنا هو أن الأندلسيين لم يكتفوا بدرس مقامات الحريرى وروايتها فحسب، بل تناولوها بالشرح والمعارضة بطريقة أثبتت مقدرتهم فى هذا اللون من الأدب.

فهناك مثلا شروح المقامات الحريرية لأبي العباس احمد الشريشى (ت ٦١٩هـ/ ١٢٢٢ م) وكانت تقع فى ثلاث نسخ كما يقول ابن الأبار: كبراها الأدبية، ووسطاها اللغوية وصغراها المختصرة[٢]. ويضيف ابن الأبار قائلا عن أبى العباس الشريشى المذكور: « ولقيته بدار أبى الحسن بن حريق من بلنسيه قبل توجهى إلى أشبيليه فى سنة ست عشرة وستمائه، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه وأجاز لى سائره مع رواياته وتواليفه، وأخذ عنه أصحابنا[٣]».

وإلى جانب شرح الشريشى نذكر «كتاب الخمسين مقامه اللزومية[٤]» وهى المعروفة بالمقامات السرقسطية تأليف الأديب أبى الطاهر محمد التميمى السرقسطى الاشتركويّ (اشتركوْي من أعمال تطيله) (توفى بقرطبة ٥٣٨هـ/١١٤٣م) عارض بها مقامات الحريرى الخمسين ولزم فى نثرها مالا يلزم، ولعله تأثر بالمعرى فى

---

(١) راجع مثلا تكملة ابن الابار تحت الأرقام التالية: ٧٢٧، ٧٥٦، ٧٦٤، ٨٤٩، ٨٥٥، ٩٣١، ٩٣٧، ٩٥٨، ١٤٢٣، ١٦٥٨، ١٧٧٩، ١٨٧٤، ١٨٩٤.
كذلك فهرسة ابن خير ج ١ ص ٣٨٧، ٤٥١، وهناك أيضاً عدا ذلك إشارة فى نفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٤٢١ (طبعة الشيخ محي الدين عبد الحميد) القاهرة ١٩٤٩

(٢) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧؛ وقد نشرت المطبعة الخيرية (مصر ١٣٠٦) الشرح الكبير من شروحه الثلاث فى جزئين

(٣) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧

(٤) مخطوط بالفاتيكان رقم ٣٧٢، وباستانبول رقمى ١٩٢٨، ١٩٣٣

لزوميـاته[١]. هذا ويروى ابن خير (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م) فى فهرسته أنه درس على الوزير أبى الحسن ســلام الباهلى «مقاماته السبع» بمنزله بمدينة شلب[٢] Silves ؛ كما يشير ابن الأبار إلى أن الأديب محارب بن محمد الوادى آشى (عاش ٥٥٣هـ/١١٠٨م) وضع مقامة فى مدح القاضى عياض بن موسى السبتى[٣] (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) ؛ وأن الأديب أبا عبد الله محمد القرطبى اللبلى وضع مقامة أخرى فى نفس الغرض سماها «المقامة العياضية الغزلية[٤]» كذلك يروى المقرى أن الفقيه عبد الرحمن بن القصير (ت ٥٧٦هـ/١١٨٠م) كانت له مؤلفات كثيرة منها خطب ورسائل ومقامات[٥].

واستمر الأندلسيون فى مزاولة كتابة هذا الفن من الأدب حتى أواخر عهدهم بالأندلس، أقصد بذلك أيام بنى الأحمر فى غرناطــة ؛ ومثال ذلك الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) فى مقاماته العديدة : معيار الاختبار فى أحوال المعاهد والديار[٦] ؛ خطرة الطيف ورحــلة الشتــاء

---

(١) ابن الأبار : المعجم (رقم ١٢٤) ص ١٤٠ — ١٤١ حيث يذكر بعض شعره فيها راجع كذلك نفس المرجع ص ٢٨٤ (رقم ٢٦٦) ؛ ابن الأبار : تـكملة ص ٦١٨ — ٦١٩ (رقم ١٧٢٢) ؛ ابن خير : ج ١ ص ٣٨٧ ؛ نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ ؛ أنظر كذلك :

Encyclopédie de l'Islam «Maqama»

(٢) ابن خير : فهرسة ج ١ ص ٣٨٦، ٤٥٠ وتقع مدينة شلب فى جنوب البرتغال . راجع :

Lévi-Provençal: *La Péninsule Iberique...* p. 129 note 4

(٣) ابن الأبار : التكملة ص ٤٠٧ (رقم ١١٧٣) . حول ترجمة القاضى عياض، أنظر : المقرى : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣ — ٣٠ ؛ F. Pons Boigues: *Ensayo biobebliográfico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles* (Madrid 1898) p. 218-219

(٤) ابن الأبار : التكملة ص ٢٣٣ (رقم ٧٦٢)

(٥) المقرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٥

(٦) عبارة عن وصف لأهم مدن المغرب الأقصى مع وصف ٣٤ مدينة من مملـكة غرناطة . وقد نشر الجزء الخاص بغرناطة فرنسسكو سيمونيت Francisco Simonet فى آخر كتابه :

Descripción del Reino de Granada (Madrid 1860)

ونشر جوزيف مولر M. J. Muller الجزء الخاص بالمغرب فى كتابه :

Beitrage zur der Wéstlichen erabes I pp. 47-99 (Munchen 1866)

(أى نخب فى تاريخ عرب الغرب)

والصيف[١] ومقامة السياسة[٢]. ومن أمثلة ذلك أيضاً القاضى أبو الحسن النباهى المالقى (توفى أواخر القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى) فى مقاماتـه النخلية[٣] التى أوردها فى كتابه المعروف باسم «نزهة البصائر والأبصار[٤]».

ثم هناك الأديب الفقيه عمر الزجال فى مقاماته الساسانية «تسريحُ النِّصال إلى مَقَاتِل الفِصَال» ويقول المقرى إنها كانت عند العامة محفوظة وعند الخاصة مرفوضـــة[٥].

وأخيراً وليس آخراً، نجد الشاعر الأديب الغرناطى أبو محمد عبد الله بن ابرهيم بن عبد الله الأزدى، المعروف بابن المرابع، وهو من أهالى مدينة بلّش Velez Málaga المجاورة لمدينة مالقه (٣٤ ك. م)

وقد كان الأزدى صديقاً للوزير ابن الخطيب الذى أفرد له فى احاطته ترجمة طويلة ذكر فيها الرسائل الأدبية والقصائد الشعرية التى تبودلت بينهما[٦]،

---

(١) نشرها مولر فى كتابه السابق الذكر ص ١٥ ــ ٤٠ معتمداً فيها على نسخة ريحانة الكتاب لابن الخطيب ص ٢٢٠ علمـــاً بوجود نشخة أخرى لهذه المقامة فى المخطوط رقم ٤٧٠ بالاسكوريال لوحات ٥٠ إلى ٧١ والمقامة عبارة عن وصف رحلة تفتيشية قام بهـــا السلطان الغرناطى أبو الحجاج يوسف ١ (١٣٣٣ ــ ١٣٥٤م) (٧٣٣ ــ ٧٥٥هـ) فى أنحاء المملكة الغرناطية مصطحباً معه وزيره ابن الخطيب.

(٢) أوردها المقرى فى نفح الطيب ج ٩ ص ١٣٤ ــ ١٤٩

(٣) المقامة النخلية عبارة عن مفاخره بين نخله وكرمه وقد نشرها مولر فى كتابه السابق الذكر ص ١٣٦ ــ ١٦٠

(٤) مخطوط بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٥٣ وهو يحتوى، فضلا عن المقامة النخلية، على تـاريخ لملوك بنى نصر نشره مولر أيضاً فى كتابه المتقدم (ص ١٠٢ ــ ١٣٨) واعتمد عليه E. Lafuente Alcantara فى كتابه المعروف باسم:

Inscripciónes Arabes de Granada (Madrid 1860)

(٥) أنظر [المقرى: نفح الطيب ج ٦ ص ٣٤٥ وما بعدها؛ أزهار الرياض ج ١ ص ١١٦ وما بعدها

(٦) نذكر من ضمنها قصيدة الأزدى التى رثا بها والد ابن الخطيب وأخاه اللذين استشهدا فى واقعة طريف (Del Salado) عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠م وقد رد عليه ابن الخطيب شاكراً بقصيدة من نفس الوزن والقافية [المقرى: نفح الطيب ج ٦ ص ٣١٥ ــ ٣١٦] وهناك قصيدة أخرى للازدى يهنئ فيها ابن الخطيب على توليه خطة الانشاء عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م [نفح الطيب مجلد ٨ ص ٢٠٩ ــ ٢١٠]

كما أورد له أيضاً مقامة[١] ساسانية كتبها إلى حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج ابن نصر[٢] يستجديه أضحية بمناسبة العيد. وهذه المقامة يجدها القارىء فى آخر هذا الكلام. (وتوفى الأزدى هذا فى الطاعون العام ببلدة بلش أواخر عام ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م).

على أن موضع الأهمية هنا هو أن فن المقامات لم يؤثر فى الأدب الأندلسى العربي فحسب بل أثر أيضاً فى الأدب الاسبانى العبرى وربما المسيحى أيضاً. فمن المعروف أن كتاب اليهود الاسبان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ترجموا إلى العبرية مقامات الحريرى كما عارضوها بمقامات شبيهة بها تماما تخللها أبيات من الشعر ذات طابع دينى أو أخلاقي أحياناً. وقد ازدهر هذا اللون من الأدب العبرى فى اسبانيا ولاسيما فى مقاطعة قطالونيا[٣].

ونذكر من كتاب اليهود الاسبان الذين برزوا فى هذا الميدان يوسف ابن مائر بن سابرا الذى ألف بمدينة برشلونة قبيل عام (٥٩١هـ/١١٩٤م) كتابه المشهور باسم «صفر شا أشو إيم» «أى كتاب التعاليم المفرحة» وهو عبارة عن مقامات تشف عن مقدرة صاحبها وقوة محصوله الأدبي والعلمى[٤]. وقد عاصر يوسف هذا أديب آخر إسمه يهودا بن سليمان الحريزى، كان يتقن اللغتين العربية والعبرية، واستطاع عام (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) أن يترجم مقامات الحريرى تحت عنوان «مخبروت إيتييل». وقد سافر يهودا الحريزى بعد ذلك إلى المشرق حيث طاف

---

(١) راجع الاحاطة، نسخة الاسكوريال، من لوحة ٢٢٧ إلى لوحة ٢٣٠ ولم ترد هذه المقامة فى الترجمة التى أوردها المقرى عن الأزدى فى نفح الطيب نقلا عن الإحاطة، أنظر: [نفح الطيب ج ٨ ص ٢٠٩ — ٢١٣]

(٢) هو والد سلطان غرناطة أبي الوليد اسماعيل الأول (٧١٣ — ٧٢٥هـ/١٣١٤ — ١٣٢٥م) وذلك بعد أن ثار على السلطان أبي الجيوش نصر وعزله مولياً ابنه مكانه

(٣) أنظر: José Millus Vallicrosa: *La poesía sagrada Hebraicoespañola* p. 125 (Madrid-Barcelona 1948)

(٤) J. Millas Vallecrosa: Op. cit. p. 133-134 كذلك راجع الترجمة الاسبانية لبعض تلك المقامات فى نفس المرجع ص ٣٢٠ (رقم ١١٦)

بأرجائه ثم عاد أخيراً إلى اسبانيا ليؤلف كتابه المشهور «تحكونى» أى الشخص العاقل[١] ؟ عارض به مقامات الحريرى وسار على منهجه فيه مقسما إياه إلى خمسين مقامة أيضاً[٢]. وقلد الحريرى كذلك سليمان بن صقبيل فى قصته الهجائية المعروفة باسم « آشر بن يهودا » والتى ابتدأها ببعض أبيات شعرية تحض على التمسك بأهداب الدين[٣]. وهناك أيضاً ابراهيم ابن صمويل حالبى بن حسداى (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) من أهالى برشلونه ، وقد استغل الترجمة العربية للقصة الفلسفية المشهورة « برلام ويوسافات » أو اسطورة بودا فى كتابة قصته العبرية المسماة « ابن الملك والدرويش » (ابن حا ملك دوى حا نازير) كتبها على شكل مقامات تتخللها أشعار وعظات أخلاقية[٤]. وهناك يهود آخرون عديدون كتبوا فى هذا اللون من الأدب مثل يعقوب بن العزار (أوائل القرن ١٣ م) الذى فضلا عن مقاماته العبرية العديدة ترجم أيضاً إلى تلك اللغة كتاب كليلة ودمنة عن العربية[٥]. ومثل الأديب شم طوب بن يوسف بن فلاقيرا الذى امتاز برقة احساسه وقوة ملكته الشعرية ولا سيما فى مقامته المسماة « صفر حا مبقيش » أى الكتاب الذى يبحث عن الحقيقة[٦]. وهكذا نجد فى كل ما تقدم برهاناً صادقاً على مدى انتشار فن المقامات فى الأدب الاسبانى العبرى .

أما من جهة تأثير مقامات الحريرى فى الأدب الاسبانى المسيحى ، فهذا أمر لا يزال فى حاجة إلى دراسة وبحث ، وإن كان بعض العلماء الاسبان

---

(١) حول معنى ذلك الإسم أنظر : The Jewish Encyclopedia, art, *Al Harizi* كذلك J. Millas: Op. cit. p. 135

(٢) J. M. Vallicrosa: Op. cit. p. 135-136 كذلك راجع ص ٣٢٢ حيث ترد الترجمة الاسبانية لبعض المقامات . أنظر كذلك :

M. Alfred Lévy: *Juda al Harizi* (Revue des Etudes Juives 1910 fasc. I p. VII-XXX); *Encyclopedie de l' Islam «Maqama»*

(٣) G. Palencia: *Literatura arábigo-española* p. 299; J. M. Vallecrosa p. 90

(٤) J. M. Vallecrosa: Op. cit. p. 136

(٥) J. M. Vallecrosa: p. 136-137

(٦) J. M. Vallecrosa: p. 144

أمثال منندث بلايو Menendez Pelayo[١] «وجونثالث باليثيا» Gonzalez Palencia[٢] يرجحون وجود هذا التأثير فى القصة الاسبانية المعروفة باسم القصة البيكارسكية[٣] La novela picaresca [يسميها البعض بقصيدة الجوع[٤]] Epopeya del hambre التى إنتشرت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى أى فى العصر الذهبي الاسبـــاني . ففيها نجد ذلك النوع من القصص الذى تربط حوادثه شخصية رجل ذكى خفيف الظل، من طبقة اجتماعية وضيعة (خادم ، شحاذ ، لص ، متسول . . . الخ) وهو المعـــبر عنه باسم « بِيكَرو » Picaro والذى يجوز أن ينطبق عليه الاصطلاح العربي القائل « من أهل الشطارة والبطالة[٥] » فهو يروى مغامراته وتنقلاته التي يشتم منها روح السخرية والتهكم على الناس وعلى فساد المجتمع وعدم الإيمان بصلاح البشر، كل ذلك فى أسلوب هزلى لاذع حيث النكتة الطريفة والعظة الاخلاقية ، وهذا ما نجـــده أيضاً فى المقامات العربية . وما أظن أنه مجرد توارد خواطر ذلك التشابه العجيب بين أسفار أبى زيد السروجى بطل المقامات الحريرية وبين مغامرات لاثريو دى تورمس Lazarillo de tormes[٦] وقزمـــان دى الفراتشى Guzmán de alfarache[٧] فى هذا النوع من القصص الاسباني[٨].

---

(١) *Orígines de la novela* I pp. 67-68, 192

(٢) *Del Lazarillo a Quevedo* p. 3-9 (Madrid 1946)

(٣) آثرنا كتابة الكلمة كما هى لعدم وجود معنى محدود لأصلها الاسبانى ، ولهذا نكتفي بالإشارة إلى الوصف الذى ذكرناه فى المتن عن نوع تلك القصة . اقرأ على سبيل المثال :
Angel Valbuena y prat: *La novela picaresca Española* (Madrid 1946)

(٤) أنظر : J. Tarri: *La Leteratura Española* p. 146 (Brevarios del fondo de Cultura Económica n° 56)

(٥) راجع : R. Dozy: *Supplement aux Dictionnaires arabes* الجزء الأول ص ٩٦ فى تفسير معنى أهل البطالة ، والجزء الاول ص ٧٥٨ فى معنى أهل الشطارة

(٦) مؤلف حياة تلك الشخصية الوهمية، مجهول، ويقال إن القصة طبعت لأول مرة عام ١٥٥٤م

(٧) مؤلف هذه القصة أديب من مدينة اشبيلية فى القرن السادس عشر اسمه Mateo Aleman

(٨) راجع : Menéndez y Pelayo: *Orígines de la Novela* t. I p. 162

ونستطيع أن نقول على أى حال إن تأثير فن المقامات فى الأدب الاسبانى سواء أكان عربياً أو عبرياً أو مسيحياً أمر لا شك فيه، وإن كان لا يزال فى حاجة إلى دراسة مقارنة تحليلية مستفيضة. وما قصدت بهذه المقدمة الا التمهيد من حيث التسلسل التاريخى، لنشر مقامة كتبت فى أواخر العصور الاسلامية بالأندلس وهى كما ذكرت آنفاً مقامة الشاعر عبد الله الأزدى التى خاطب بها الأمير أبا سعيد بن نصر يستجديه اضحية بمناسبة العيد.

ومقامة الأزدى ككثير غيرها من المقامات، قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بنى ساسان، احكم التحيل وقصر همه على تحصيل كبش من الأمير، فهى بمجملها حيل تفسر حياة مُتَكَدٍّ وما يقابله فيها من مآزق ومصاعب، كل ذلك فى أسلوب مسجع ملىء بالنكات المستملحة.

والمقامة فضلا عن طرافتها كقطعة أدبية، لها قيمتها التاريخية من حيث كونها صورة جزئية للمجتمع الغرناطى الذى كتبت فيه، والذى لا نعرف عنه إلا الشىء القليل لندرة المراجع التى تناولت الكلام عنه. ففي هذه المقامة نجد أشكالا من الناس بمميزاتهم وأشكالهم وأخلاقهم النفسية والاجتماعية: الزوجة وكثرة مطالبها، والعجوز وتطفلها، والبائع ووضاعته، والقصاب وزيه التقليدى، والموثِّق الذى يسجل فى دكانه عقود البيع والشراء بالتقسيط، والمحتسب الذى يشرف من قبل الحكومة على الأسواق، والأمين الذى هو أشبه بنقيب يمثل أصحاب المهن التجارية والصناعية فى السوق ويسأل أمام المحتسب عن مشاكلهم، والشرطى الذى يحافظ على الأمن والنظام فيطرد ويجرد الباعة المذنبين، وذلك بأمر من المحتسب أو الأمين، هذا عدا الاشارة إلى صناعة الفخار، وهو الفخار المالقى الذى طبقت شهرته الآفاق. فالمقامة ـ بعبارة أخرى ـ تعطينا صورة من صور الحياة الشعبية الغرناطية التى لا زلنا نتلمس بعض مظاهرها فى حياتنا العادية فى الوقت الحاضر.

نص مقامة الأزدى كما وردت فى كتاب الاحاطة

يقول شاكر الأيادى ، وذاكر فخر كل نادى ، وناثر غرر الغرر للعـاكف والبادى والرائح والغادى : اسمعوا منى حديثاً تلذه الأسماع ، ويستطرفه الاستماع ، ويشهد بحسنه الإجماع ، وهو من الأحاديث التى لم تتفق إلا لمثلى ولا ذكرت عن أحد قبلى ؛ وذلك يامعشر الألفاء والخلصاء والأحباء ، أنى دخلت فى هذه الأيام دارى ، فى بعض أدوارى ، لأقضى من أخذ الغذا أوطارى ، على حسب أطوارى . فقـالت لى ربة البيت ، لم جئت ولم أتيت ؟ قلت جئت لكذا وكذا ، فما الغذا ؟ قالت لا غذا لك عندى اليوم ، ولو أودى بك الصوم ، حتى تسل الاستخارة ، وتفعل كما فعل زوج الجارة ، طيب الله نجاره ، وملأ بالأرزاق وجاره . قلت وما فعل ؟ خبرينى ، وأرينى من العـلامة ما أحببت ترينى . قالت إنه فكر فى العيد ، ونظر فى أسباب التعييد ، وفعل فى ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد ، وأنت قد نسيت ذكره ، ومحوته من بالك ، ولم تنظر إليه نظرة بعين اهتبالك ، وعيد الأضحى فى اليد ، والنظر فى شراء الأضحية اليوم أوفق من الغد .

قلت ، صدقت ، وبالحق نطقت ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفيك . ولقد نبهت بعلك لإقامة السنة ، ورفعت عنه من الغفـــلة هنة ، والآن أسير لأبحث عما ذكرت ، وانظر فى احضار ما إليه أشرت ، ويتأتى ذلك إن شاء الله بسعدك ، وتنالين فيه من بلوغ الامل غاية قصدك ، والجد ليس فى الهزل ، والأضحية للمرأة وللرجل الغزل . قالت دعنى من الخرافات ، وأخبار الزرافات ، فإنك حلو اللسان ، قليل الإحسان ، اتخذت الغربة صحبتـك آل ساسان[1] ،

---

(١) جماعة من المتسولين وأهل الكدية ويعرفون أيضاً بالساسانية نسبة إلى رجل اسمه ساسان (كان حاذقاً فى الاستعطاء دقيق الحيلة فى الاستجداء) . . . وقد ورد ذكر بنى ساسان فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ، كما ذكرهم الحريرى فى مقامته المسماة «بالمقامة الساسانية» التى أوضح فيها كثيراً من البواعث الدافعة على التسول

فتهاونت . . . وأسأت فيمن أساء ، وعودت أكل خبزك فى عقر منديل ، وإيقاد الفتيل دون قنديل ، وسكنى الخان ، وعدم ارتفاع الدخان ، فما تقيم موهما ، ولا تعرف له مبسما ، وأخذت معى فى ذلك بطويل وعريض ، وكلانا فى طرفى نقيض ؛ إلى أن قلت لها : إزارك ورداءي ، فقد تفاقم بك أمر دائي ، وما أظنك إلا بعض أعدائي . قالت : مالك والإزار ، شط بك المزار ، لعلك تريد إرهانه فى الأضحية والأبزار[1] ؟ أخرج عنى يامقيت ، لا عمرت معك ولا بقيت ، أو عدمت الدين ، وأخذ الوزر يالعين ، يلزمنى صوم سَنة ، لا أغفيت معك سِنة ، إلا إن رجعت بمثل ما رجع به زوج جارتى ، وأرى لك الربح فى تجارتى . فقمت عنها وقد لوت رأسها وولولت ، وابتدرت وهرولت ، وجالت فى العتاب وهولت ، وضمت بنتها وولدها ، وأقامت باللجج والإنصار بالحجج أوَدَها . فلم يسعنى إلا أن عدوت أطوف السكك والشوارع ، وأبادر لما غدوت بسبيله وأسارع ، وأجوب الآفاق ، وأسأل الرفاق ، وأخترق الأسواق ، وأقتحم زريبة بعد زريبة ، وأختبر منها البعيدة والقريبة ، فما استرخصته استنقصته ، وما استغليته ، استعليته ، وما وافق غرضى ، اعترضنى دونه عدم عَرَضى ، حتى انقضى ثلثا يومى ، وقد عييت بدورانى وصومى ، وأنا لم نحصل من الابتياع على فائدة ، ولا عادت علىّ فيه من قضاء الأرب عائدة . فأومأت للإياب ، وأنا أجد من خوفها ما يجد صغار الغنم من الذئاب ، إلى أن مررت بقصّاب فى مجزرة ، قد شد فى وسطه مجزرة مبزرة ، وقصر أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمر عن ساعديه ، حتى أبدى مرفقيه ؛ وبين يديه ، عنز ، قد شد يديه فى روقيه ، وهو يجذبه فيبرك ، ويجره فما يتحرك ، ويروم سيره فيرجع القهقرى ، ويعود إلى ورا ، والقصاب يشد على إزاره ، خيفة من فراره ، وهو يقول : آه له من جان باغ ! وشيطان طاغ ، ما أشده ! وما ألدّه ! وما أصده ! وما أحده ! وما أكثره

---

(١) أى التوابل

بشحم ! وما أطيبه بلحم ! الطلاق يلزمة إن كان عاين تيسا مثله ؛ أو أضحية تشبهه قبله ، اضحية حفيله ، ومنحة جليله ، هنا الله من رُزِقَهَا ، وأخلف عليه رِزْقَهَا. فاقتحمت المزدحم انظر مع من نظر ، واختبر فيمن اختبر ، وأنا والله لا أعرف فى التقليب والتخمين ، ولا أفرق بين العجيف والسمين ، غير أنى رأيت صورة دون البغل وفوق الحمار ، وشكلا يخبرك عن صورة العُمَّار[1]. فقلت للقصاب ، كم طلبك فيه ، على أن تمهل الثمن حتى أوفيه ؟ فقال إبغنى فيه أجيرا ، وكن له الآن من الذبح مجيرا ، وخذه بما يرضى لأولى التقضى . قلت استمع الصوت ، ولا تخف الفوت . قال ابتعه منى نَسِيَّة ، وخذه هدية . قلت نعم فسق لى الضمير ، وما ما كسنى فيه بالنقير والقطمير . قال تضمن بى فيه عشرين كبارا ، أقبضها منك لانقضاء الحول دينارا دينارا . قلت إن هذا لكثير ، فاسمح منه بإحاطة اليسير . قال والذى خلق الحبة ، وبرأ النسمه ، لا أنقصك من هذا وما قلت سمسمه ، اللهم إن شئت السعة فى الأجل ، فأقضى لك ذلك دون أجل . فجلبنى للابتياع منه الإنساء فى الأمد ، وغلبنى بذلك فلم افتقر معه لرأى والد ولا ولد ، ولا أحوجت نفسى فى ذلك لمشورة أحد . وقلت قم اشتريته منك فضع البركة ، ليصح النجح فى الحركة . فقال ففيه ، بارك الله فيه ، وقد بعته لك ، فاقبض متاعك ، وثبت ابتياعك ، وها هو فى قبضك ، فاشدد وثاقة ، وهلم لنعقد عليك الوثاقة . فانحدرت معه لدكان التوثيق ، وابتدرت من السعة إلى الضيق ، واوثقنى بالشهادة تحت عقد وثيق ، وحملنى من ركوب الدين ولحاق الشين فى أوعر طريق . ثم قال لى هذا تيسك فشأنك وإياه ، وما أظنك الا تنتهياه ، وآت بحمالين أربعة ، فإنك لا تقدر أن ترفعه ، ولا يتأتى لك أن يتبعك ولا أن تتبعه ، ولم يبق لك من الكلفة إلا أن يحصل فى محلك ، فيكمل سرور أهلك . وانطلقت للحمال وقلت هلم إلى ، وقم الآن بين يدى ، حتى انتهينا إلى

---

(١) العمار ، سكان البيوت من الجن

مجزرة القصاب ، والعنز يطلب فلا يصاب . فقلت : أين التيس يا أبا أويس ؟ قال إنه قد فر ، ولا أعلم حيث استقر . قلت اتضيع على مالى ليخيب آمالى ؟ والله لأنحرنك بالعصا ، كمن عصا ، ولأرفعنك إلى الحكام ، تجرى عليك منهم الأحكام ، قال مالى علم به ، ولا بمنقلبه ، لعله فر لأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فعليك بالبريح . فانحدرت أنادى بالأسواق ، وجيران الزقاق ، من ثقف لى تيسا فله البشاره ، بعدما آتى بالأماره ، وإذا برجل قد خرج من دهليز ، وله هرير وهزيز ، وهو يقول من صاحب العنز المشوم ؟ لا عدم به النوم ، إن وقعت عليه عينى ، يرتفع الكلام بينه وبينى . قلت أنا صاحبه ، فما الذى دهاك منى ، أو بلغك عنى ؟ قال إن عنزك حين شرد ، خرج مثل الأسد ، وأوقع الرهج فى البلد ، وأضر بكل أحد ، ودخل فى دهليز الفخاره فقام فيه وقعد ، وكان العمل فيه مطبوخاً ونياً ، فلم يترك منه شيأً ، ومنه كانت معيشتى ، وبه استقامت عيشتى ، وأنت ضامن مالى ، فارتفع معى للوالى . والعنز مع هذا يدور وسط الجمهور ، ويكر كرة العفريت المزجور ، ويأتى بالكسر على ما بقى فى الدهليز من الطواجن والقدور ، والخلق قد انحشدوا للضجيج ، وكثر العياط والعجيج ، وأنت تعرف عضرطة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وأنا أحاول من أخذه ما أستطيع ، وأروم لاطاعته من غير مطيع ، والباعة ، قد اكسبته من الحماقة ، ما لم يكن لى به طاقة ، ورجل يقول المحتسب ، وأعرف ما تكتسب ، وإلى من تنتسب ، فقد كثر عنده بك التشكى ، وصاحب الدهليز قبالته يبكى ، وقد وجد عليك وجد الشكوى ، وأيقن أنك كسرت الدعوى ، وأمر بإحضارك ، وهو فى انتظارك ، فشد وسطك ، واحفظ ابطك ، وإنك تقدم على من فتح باعه للحكم على الباعه ، ونصب لأرباب البراهين ، على أرباب الشواهين ، ورفع على طبقه ليملأ طبقه ، ثم امسكنى باليمين حتى أوصلنى للأمين ، وقال لى أرسلت التيس للفساد ، كأنك فى نعم الله من الحساد . قلت إنه شرد ، ولم أدر حيث ورد . قال ولم لا أخذت ميثاقه ، ولم تشدد وثاقه ؟

ياشرطى ! طَرِّدْه ، واطرح يدك فيه وجرده . قلت اتجردني الساعة ولست من الباعة ؟ قال لا بد من ذاك، أو تضمن ما أفسده هناك. قلت الضمان، الضمان ! والأمان ، الأمان ! قال قـــد أمنت إن ضمنت ، وعليك الثقاف ، حتى يقع الانصاف ، أو ضامن كاف . فابتدر أحد اخواني ، و بعض جيراني ، فأدى عنى ما ظهر بالتقدير ، وآلت الحال للتكدير . ثم أردت الانصراف بالتيس لا كان كيانه . . . . . وإذا بالشرطى قد دار حولى ، وقال لى كاف فعـــلى ، بأداء جعلى ، فقد عطلت من أجلك شغلى ، فـلم يك عندى ما نكسر سورته ، ولا بما نطفىء جمرته ، فاسترهن ميسورتى[1] بيته ، ليأخذ ما بته . وتوجهت لدارى ، وقد تقدمت أخبارى ، وقدمت بغبارى ، وتعير صغارى وكبارى ، والتيس على كاهل الحمال يرغو كالبعير ، ويزأر كالأسد إذا فصلت العير . فقلت للحمال انزله على مهل ، التعييد قد استهل . فحين طرحه فى الاسطوان ، كر إلى العدوان ، وصرخ كالشيطان ، وهم أن يقفز الحيطان ، وعلا فوق الجدار ، وأقام الرهجة فى الدار . ولم تبق فى الزقـاق عجوز إلا وصلت لتراه ، وتسل عما اعتراه ، وتقول بكم اشتراه ؟ والأولاد قد أرهقهم لهفه ، ودخل قلوبهم خوفـه . فابتدرت ربة البيت ، وقـالت كيت وكيت ، لا خل ولا زيت ، ولا حى ولا ميت ، ولا موسم ولا عيد ، ولا قريب ولا بعيد . سقت العفريت إلى المـنزل ، ورجعت بمعزل ، ومن قال لك اشره ما لم تره ؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه ؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز أضحيتك ؟ ومتى تطبخ القدور ، وولدك منه مغدور ؟ و بأى قلب تأكل الشوية ولم تخلص لك فيه النية ؟ واقلة سعدها ! واخلف وعدها ! والله لو كان العنز ، يخرج الكنز ، ما عمر لى دارا ، ولا قرب لى جوارا ؛ اخرج عنى ياكع ، فعل الله بك وصنع ! ومـا حبسك عن الكباش السمان

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها تحريف عن كلمة : منسورية أو منصورية . وهو رداء يلبس فوق القفطان ولا يزال يستعمل فى بعض الجهات بمراكش . أنظر :

Dozy (R. P. A.) : *Dictionnaire détaillé des noms des vetements chez les arabes* p. 418 (Amsterdam 1845).

والضان الرفيعة الأثمان ، ياقليل التحصيل ، يامن لا يعرف الخياطة ولا التفصيل ! أدلك على كبش سمين ، واسع الصدر والجبين ، أكحل عجيب ، أقرن مثل كبش الخطيب ، يعبق من أودا كه كل طيب ، يغلب شحمه على لحمه ، ويسيل الودك من عظمه ، قد علف بالشعير ، ودبر عليه أحسن تدبير ، لا بالصغـــير ، ولا بالكبير ، تصلح منه الألوان ، ويستطرف شواه فى كل أوان ، ويستحسن ثريده ، وقديده فى سائر الأحيان ؟ قلت بينى لى قولك ، لم لا نعرف فعلك ، وأين توجد هذه الصفة ياقليلة المعرفة ؟ قالت عند مولانا وكهفنا ومأوانا الرئيس الأعلى ، الشهاب الأجلى ، القمر الزاهر ، الملك الظاهر ، الذى أعز المسلمين بنعمته وأذل المشركين بنقمته . . . واسترسل فى المدح فأطال وفيما ثبت كفاية .

أحمد مختار العبادى